أَلفَاظُ الحَضَارَة بَينَ العاميِّ وَالفَصِيح

د. أحمد شَفِيق الخَطِيب
رئيس دائرة المعاجم/بيروت – مكتبة لبنان

في مُعالجة مَوضوع «ألفاظ الحضارة بين الفصيح والعامي» يُفتَرَض أني أُعَرِّفُ ألفاظي بادىء ذي بَدء.

الحضارةُ ــ يقولُ المُعجم الوسيط ــ هي مظاهرُ الرُّقي العِلمي والفنِّي والأدبي والاجتماعي (وأُضيفُ إليها التِّقاني) في الحَضَر. ولفظةُ «الحضر» يُحدِّدها المعجمُ نفسُه بأنها تشمَلُ المُدنَ والقُرى والرِّيف.

يَعني : الحضارةُ تشملُ كُلَّ ما حَولنا :

إن كان فنجانَ قهوةٍ من بَكرجٍ عاديٍّ أو كهربائي، أو كأسَ ماءٍ باردٍ من جَرَّةٍ أو ثَلاّجة، أو كان تصَفُّحَ جريدةٍ صباحاً، أو مطالعةَ كتابٍ في جلسةٍ هادئة مساءً على نور قِنديل كازٍ أو غازٍ أو كهرباء، أو كان الاستطبابَ بِوَصْفةٍ أعشابيَّةٍ أو مضادٍّ حيوي، أو كان ثوباً مُطرَّزاً في الضيعة أو مُقصَّباً في بيوتات باريس، أو كان سَفرةً في قافِلةٍ أو قطارٍ أو سيارةٍ أو طائرة، أو كان مُتابعةَ مُباراةٍ في كُرة القدم على الراديو، أو مُراقبةَ عودةِ المكُوك الفضائي بقَمرٍ استِطلاعيٍّ ضَخمٍ تائهٍ على التلفزيون، أو... أو إلى ما هُنالك ــ مِمّا كان أو سيكُون !

يعني : حضارتُنا هي كُلُّ ما حولَنا، كُلُّ اختباراتِنا، كُلُّ وسائلِ العَيْشِ والنَّقلِ والاتصالاتِ عندنا، كُلُّ مصانِعنا و مَصنوعاتِنا ومُختبراتِنا، كلُّ مَطابعنا ومَطبوعاتِنا وإذاعاتِنا، كُلُّ ما تقَعُ عليه أعيُننا أو يَجولُ في أفكارِنا.

ومن هذا المُنطَلق، فإنّ كُلَّ لفظ هو لَفْظٌ حضاريّ ــ يحمِلُ في طيّاته قليلاً أو كثيراً من الحضارةِ تَبَعاً لخِبرة السامعِ وثقافته وبيئته.

لَفْظَةُ «خُبْز» مثلاً على بساطَتِها وإن عنَتْ «ما يُصْنَعُ من الدقيقِ المَعجون المُنْضَجِ بالنار» لجميع النّاس، فإنّها تحمِلُ الكثيرَ الكثير في ثناياها لمُختلِف فئاتهم وبيئاتهم.

فهذا الدقيقُ قد يكونُ من الشَّيْلم أو الشَّعير أو الدُّخنِ أو أنواع الذُّرةِ المُختلفةِ أو القَمح، أو أيٍّ منها مع القمح، ونارُ إنضاجه قد تكونُ مَوْقداً وَقودُه القَشُّ أو الحطبُ أو البترولُ أو الغازُ أو الكهرباء أو المَوجات الصُّغرية (المِكروويف).

وقد يكونُ الخُبزُ صِنْفاً من عشراتِ أنواعه ــ من خبز الصاج الرقيق أو البلديّ السّميك أو الإفرنجي المُقَولَب، وقد يكون صُنِعَ في البيتِ أو في مَخْبَزٍ صغيرٍ أو في مَصْنَعٍ ضخمٍ مُجهَّزٍ بالمعدَّات والآلات فلا تَمَسُّه يدُ إنسان !

وقد يكون مُعالَجاً بالخمائر أو بِدونِها، مُعَزَّزاً بالفيتامينات أو بجوامِد اللَّبَن، أو يكونُ مِن النوعِ الخاصِّ بالحِمْيَة أو مَرضِ السُّكري. ولعَلَّ اللفظةَ تُجيلُ في خاطِر سامعِ الاضطراباتِ التاريخيَّةَ القديمةَ والحديثةَ التي نجمتْ بِسبب الخُبز أو تُعيدُ إلى ذِهنٍ آخرَ مَصيرَ رَفيق يوسفَ الصِّديقِ في السِّجن والآية الكريمة ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً﴾.

ومِثْلُ هذا يُمكن أن يُقال في لفظة «قماش» منذ لِيفِ القِنّبِ حتّى ألياف عُصارات الرّايُون، وفي «سِلاح» مُنْذُ بَلْطَة الحَجر المُشذَّب حتى صواريخ

عَصْرِ النُّجوم، وفي «عَجلة» منذ قَطع أولُ إنسانٍ جِذْعَ شجرةٍ ضخمةٍ فسَيَّر عليه عَربةً حتى حرَّكتْ دواليبُ سِليليه مكَنَاتِ الثورة الصِّناعية وأطّرتِ العرباتِ القمريَّة. ومثله يُقال أيضاً في لفظة «انتفاضة»[1] مذ ثار أوَّلُ حُرٍّ على مُستعبديه حتى انتفاضة الشعب العربي في الأرض المُحتلة على قاهريه، وفي آلاف الألفاظ العريقة الأخرى.

وإنّك إذا ما اخترت لفظةً من المُستجدات التِّقانيَّةِ كلفظة «راديو» مثلاً فإن مَفهومَها الحضاريّ قد يختلِفُ بالقَدْرِ نَفْسه. فهي لِبَعْض الناس جهازٌ يأتيهم بنَشَرات الأخبارِ وما يطلبه المُستمعون ــ بَيْنا يَرى فيها آخرون حَلْقةً بين التلفون والرادار، جهازاً مُعقَّداً تتلقَّى مُقَوِّماتُه ومُضَمِّناتُه وصِماماتُه ومُرَشِّحاتُه ومكروفوناتُه التمَوُّجاتِ الصوتيَّة المُنْبَعَثة من محطّة البَثِّ مُحمَّلَةً على الأمواج الكَهْرِمغنيطيَّة عَبْرَ الأثير، فتُحلِّلُها وتُرشِّحها وتُقوِّمُها وتُضَخِّمها حسَبَ الطَّلَب أنغاماً شجيَّةً أو كلاماً بَيِّناً سائغاً للسَّامعين.

وقد تُحيلُ اللفظة إيّاها في خاطِرِ السامِع جُهودَ العلماء والخُبراءِ الذين أدّت إبداعاتُهم إلى هذا الإنجاز الرائع ــ مِنْ فارادي ومَكْسويل حتى هِرْتِز وفلِمنغ وماركوني، أو تُعيدُ إلى ذِهْنه الخَدَماتِ الجُلّى التي يُؤديها الراديو لِبني البَشَرِ في البَرِّ والبَحر والجوّ.

أليسَ هُم يقولون : الألفاظُ تُؤرِّخ الحضارة ؟

ثُمَّ إنّ الألفاظَ نفسهَا قد تتفاعَلُ مع التعابير فتكسبُها معاني أو تعبئُها مفاهيمَ حضاريَّةً مُختلفة :

فمفهومِ حَطّم في «حَطَّمَ الرَّجُل السِّياج»، غيرُه في «حَطَّمَ الإنسانُ الذّرة».

وتعبيرُ «شُروق الشمس» مفهومٌ فَلكي شِعريّ جماليٌّ أَلِفناه، لكِنّ التعبير «شُروق الأرض» مَفهومٌ حضاريٌّ طازَج لم يختَبِرْهُ بَعْدُ إلاّ نُزلاءُ المركَباتِ الفضائيَّة.

وهكذا قُلْ في آلاف التعابير التي أكْسَبَتْها الحضارةُ معانِي ومفاهيمَ مُحدَّدةً، أو إنّها صِيغَتْ فِعْلاً لتحملَ مفاهيمَ مُعيَّنةً لم تكُنْ من قبلُ مألوفةً مثل :

حَرب باردة

غِطاء جوِّي

غرفة عمليّات (بالمعنى الطِّبي أو العسكري)

حِساب جارٍ

سَلَّة عُملات...الخ

وغنيٌّ عن القول أنه كُلما تقدَّم الإنسانُ في سُلَّم الحضارة إزدادت الألفاظُ والتعابيرُ والأفكارُ اللازِمةُ لِلتفاعُلِ مَعها والمُرتبِطةُ بها ــ كَوْنَ اللغةِ مرآةً تعكِسُ أحوالَ الناسِ وأوضاعَهم ووَاقعهم واستجابتَهم لِمُتطلَّباتِ الحضارةِ المُتجدِّدة ومُستلزَماتِها.

اللغة العربية وألفاظ الحضارة

اللغة العربيَّةُ عُرِفَتْ مُنذ دُوِّنتْ لُغةً فَذَّةً بين اللغاتِ غِنًى وفصاحةً ومَقدرةً على التعبير ووفاءً بحاجاتِ القوم في نِطاق بيئتهم الطبيعيَّةِ وتعامُلِهم فيما بينهم مَحلّيا ومَعَ البيئات الأخرى من حَولِهم. وقد أهّلها ذلك لارتقاءِ قِمَّة البيان الإنساني في القُرآن الكريم.

وما جابَهتِ العربيَّةُ الألفاظَ الحضاريَّةَ كمُشْكِلةٍ، على ما نَعْلَمُ، إلا في تَجربتَين :

التجربةُ الأولى كانت عندما دَخل العربُ التاريخَ تحت راية الإسلام. وكانت الأممُ التي شملَتها إمبراطوريّتهم في الشامِ والعراقِ ومِصرَ وفارسَ قد قطعتْ شوطاً بعيداً في مِضمار الحضارة. فأقبلَ العربُ على تُراثِ وعلومِ تلك الأمم فنقلوها واشتغلوا بها وزادوا فيها. وشاهَدُ استيعابِ اللغة العربيَّة

(1) هذه اللّفظة بِمَنْطوقها العربيّ أصبحت من المُستَجدّات اللغويَّة في صُحف العالم كافةً وفي سائر وسائل إعلامه. ويُدرِجُها سِجِلُّ لونغمان للألفاظ المُستَجدة في اللغة الانكليزية الصادر عام 1989 ضِمن ألفاظه في مادة intifada.

للحضارات الفارسيّة واليونانية والهنديَّة وهضمِها وتجاوُزها في مختلِف نواحي الحياة الاجتماعية والفكريةِ والعلميَّة، أنَّها سُرعانَ ما أصبحتْ لُغةَ العِلم والحضارة في سائر أرجاء العالَم المعروف حينئذٍ ــ عَنْها يُترجَمُ ومنها يُقْتَبَسُ.

ثُمَّ رانَ على أمّة العرب ــ وبالتالي على اللغة العربيّة ــ سُبَاتُ القُرون الخَمْسة.

وكانت التجربةُ الثانيةُ ــ التي لا نزال في مُعْتَركها ــ حين جابَهت العربيَّةُ فَيْضاً هائلاً من الأفكار والمُسمَّيات التي رافقت اِنفتاحَنا على الغَرب، أو على الأصَحّ، اِنفتاحَ الغَرْبِ علَينا ــ فجاءَتنا تِقانةُ الحربِ والفُنونُ الهندسيَّة والطبيَّةُ بَدْءاً بحَمْلةِ نابليون على مصر وبَعَثاتِ مُحمّد علي إلى مختلِف الأقطار الأوروبية. واِمتداداً بالبَعَثات التبشيرية الأمريكيَّة والفرنسية في بَعض سُوريا ولُبنان. واحتدَمت المُجابهةُ خِلال القَرن العشرين الذي تميَّز، كما هُو معروف، بازدِياد أسباب الحضارةِ ازدياداً مُذهلاً في مختلِف المجالات الاجتماعية والاقتصاديَّة والعلميَّة وشتّى المهارات التِّقانيَّة الحياتيَّة المُتعلِّقة بالطعام والسّكَن والصِّحّةِ والأمن والحُرِّيةِ والبقاء.

لقد جَهدت اللغةُ العربيَّة خِلالَ هذه التّجربة، وحُوربتْ وتعثّرت، لكنّها عادت تَنْتَعِشُ. وهي اليومَ، بِفَضْل جُهود الرُّوّاد الخالدين والعاملين المُخلصين والمَجْمعيين، في سَبيلها إلى النجاح والإبداع إن شاء الله.

والذين يتّهمون العربيَّةَ بالتقصير اليومَ لأنّها لم تستجِبْ للتجربة الحاليَّةِ كما استجابت للتجربةِ الأولى لعلَّهم يتجاهلون بضْعَة عوامِلَ، منها ــ

أوّلاً : في التجربة الأولى لم تُجابه اللغةُ العربيَّةُ فارقاً حضارياً حادًّا كما يتوهّمُ الكثيرون. فالعربُ في الجاهلية، وإن كانوا جاهِلِيين دينيًّا، لم يكونوا جاهلين حضاريًّا. فلم تكُن حضارةُ الرُّومِ والفُرس والهند مُفاجئةً للعرب ــ غساسِنةً ومَنَاذِرةً شمالاً، أو يمانيِّينَ وخليجيين جنوباً. ولا بُرهانَ أنْصَعُ على ذلك من لُغةِ القُرآن الكريم نفسها التي تحوي كلماتٍ من جميع اللهجات العربيَّةِ ومن الإغريقيَّة والفارسيَّة والإثيوبيَّة كما هو معلوم.

أضِفْ إلى ذلك أن تلك المُجابهةَ ظَلَّت تدريجيَّةً طبيعيَّةً، استغرقتْ عمليةُ النَّقلِ والتطوُّرِ فيها قُرابةَ ثلاثةِ قُرون.

أمّا التجربةُ الثانية الحاليَّةُ فقد كانت المجابهةُ فيها بالِغَةَ الحِدّة ــ لا فقط بفعل الفارِق الحضاريِّ الانقلابي المُذْهِل على كلِّ المستويات وفي شتّى المجالات، ولا بفَيْضِ المُصطلحات والأفكار والمُسَمَّيات التي رافقَتْه، بل أيضاً بالتسارُعِ الهائل في سَيْل المُخترعات والمُكتَشفات والمُسَمّيات والمُصطلحات التي ظلَّت تَنْدَفِقُ بتَسارُعٍ يُربِكُ حتّى أهلَ الصَّنعةِ وتقنييها وعُلماءَها باللغة التي تُخَلَّقُ بها تلكَ المُسَمَّيات. وهي مُسَمَّيات، إن كان يُمكِنُ تجاهُلُ الكثيرِ منها أو تركهُ لأهل الاختصاص، فإن الكثيرَ منها مُتشابِكٌ مُتَحابك مع شُؤون الناس الحياتيّة والثقافية والعلمية في مختلِف مَجالاتها ومُستوياتها. والذين عانَوا تعليمَ العلوم مِثلي في هذا الجيل لحظُوا ولا شَكّ أن الكثير الكثيرَ من المُسمّيات الأساسيَّةِ في الكيمياء والفيزياء وعِلم الأحياء التي يُعَلِّمون، لم تكُنْ معروفة أيامَ درَسوها هُم في الجامعات، وأنّها اليومَ أكثرُ بكثيرٍ مِمّا هو مُدَوّنٌ في الكُتب التي يُدَرِّسون.

وكَوني لا أملِك إحصائياتٍ دقيقةً حول حَجم هذه المُجابهة المُصطلحية وتَناميها وما يدخُل المُعجَم اللُّغوي منها في مَرجع عربيٍّ ألجأُ إلى إحصائيات لُغةٍ هي مصدرُ الكثير من مستورداتنا الحضاريَّة ــ لا في مجال التقانيات والمُنتجات فقط بل في مجالات الفِكر والثقافة أيضاً.

المُعجم الأشْهَر في اللغة الانكليزية اليوم هو مُعجم وِبْستر الدولي الثالث الذي صدر عام 1961 وبه على ذِمّة مُحرِّرة 450 ألفَ مَدخلٍ منها 200 ألف ذاتُ طابَع عِلمي أو تقاني لا أدري إن كان قد

دخلَ معاجمَنا نِصْفُها. وفي المُلحقات التي ظَلّ يُصدرها مُحَرِّرو هذا المعجم كُلَّ خَمْس سنوات، وتابَعَهم فيها مُحررو دار بارْنهارت المُختَصَّة بمَعْجَمة المُستَجدات في الانكليزية، بلَغ مُعَدَّلُ هذه الإضافات خمسةَ آلاف مادة في كل مُلحق ــ عِلْماً أن هذه المُستجدّات لا تَشْمل المُصطلحاتِ الفيزيائية أو الهندسية أو الالكترونية العالية الاختصاص ولا أسماءَ المركّبات الكيماوية المُعَقّدة ولا أسماءَ النباتات والحيوانات التي لا تُهمُّ غيرَ البُيولوجيين وكلُّها يكادُ يفوق الحَصْر، ولا الرّطاناتِ التي يَستخدمُها التقانيُّون والمِخْبَريون فيما بَيْنهم، بل هي خمسةُ آلاف لفظة حضارية ثابتة مُستقِرَّة، تُهمُّ عامَّةَ المُثقّفين.

ثانياً : الذي نعرِفه أنّ العلماءَ والمُتَرجمين المُستعربين والعربَ الذين نقلوا «التكنولوجية» في التجربة الأولى لم يعترضْ حركتَهُم أحدٌ في التوليد والتعريب. فهُم على غزارةِ مادّة العربيَّة ومُرونَتِها وصِيَغها ومزاياها الوضعيَّةِ نَحْتاً واشتِقاقاً ومَجازاً، كانوا إذا أعوزتْهمُ السُّبُل ينقلُون اللفظَ الإغريقيّ أو الهنديَّ أو الفارسي بلَفْظِه ــ تشهدُ بذلك الأعمالُ الخالدة لابن سينا والكِندي والرازي وابنِ الهَيثم والفارابي والخوارزميَّين[2] والبتّاني والبيروني وغيرِهم. ولسانُ حالِهم يَقول «أيّ لفظٍ فصيحٌ إذا دخلَ لُغة العلم»[3].

ولئن كان المترجمون الأوائلُ وجُلّهم من الأعاجم قد عرَّبوا عَجْزاً، كما يُقال، فإني لا أريد أن أعتقدَ أنَّ عَبقريةَ ابن سينا كانت تعجِزُ عن تَخليقِ مُقابلاتٍ تُترجمُ مثيلاتِ كَيلوس وكَيموس ونِقْرس وقُولَنْج ــ ولا الكِنديَّ عاجزٌ عن توليد ألفاظٍ تُقابلُ مَثيلات أنولُوطيقا وريطُوريقا وبُوليطيقا، وهو الذي أجادَ شَرْحها في رسائله، ولا البَيروني والخوارزمي وابنَ الهيثم قاصرون عن اِستِنْباط بديلاتٍ لأمثال زِيج وجيُومَطرى وأريثماطيقا وأسترونُوميا.

وفي يَقيني أنّهُم إنما فَعلوا ذلك رَغْبةً في الدِّقّةِ ومُراعاةً لِلحفاظ على الصِّلة العِلميةِ مع سائر اللغات. وهُم كانوا إذا ما رأوا أنَّ مُصطلحاً لا يؤدي معناه كاملاً عَدَلُوا عَنْهُ إلى ما هُو أدَقُّ وأضبطُ وأذوقُ، ولَم يُبَالُوا أن يكونَ ذاكَ المُصطلحُ عربيًّا أصيلاً أو مُسْتَعْرَباً دَخيلاً.

هذا و لم يكُن كتابُ العربيَّة آنذاك في إنجازاتهم الرائعة يتورّعون عن استخدام ما كان يجري على ألسنة العامة مُوَلَّداً أو دخيلا ممّا يَجدون فيه وُضوحاً وبَياناً وحَيَويةً ودقةَ أداء. وشواهِدُ ذلك نَقْرأُها في بُخلاءِ الجاحِظ وحَيوانِه، كما في أغاني أبي الفرج الأصبَهاني وعِقْدِ ابن عبد ربّه ووفيات ابن خِلّكان ونَشوار التّنوخي وغيرها.

في التجربة الثانية، والعربيَّةُ لمّا تستردَّ صَحوتَها ولا مُرونتَها بَعْدَ غَفْوَةٍ وجُمود القُرون الخَمسة، بدأت حركةُ نَقْل العُلوم على غِرار ما فعله السَّلَفُ ــ بالترجمة حِينا، وإحياءِ المُولّدات والتوسُّع في تخليق مَثيلاتها بالقياس حِيناً، والاستعانة بألفاظ أهلِ الصَّنعةِ حيناً وباللجوءِ إلى التعريب حيناً ــ في نِطاق مِنهجيَّةٍ تَبلْورتْ في بيانِ مُحمد حَفني ناصِف يومَ افتتحَ نادي دارِ العلوم في مَطْلَع هذا القرن. وقد

---

(2) محمد بن موسى (ت. 850) الرياضي والفلكي والجغرافي المشهور. ومحمد بن أحمد (ت. 977) صاحب «مفاتيح العلوم» أقدم دائرة معارف في مصطلحات العلوم.

(3) تُورد مجلة مجمع اللغة العربيَّة الأردني ص 11، جزء 23 – 24، قولاً للبيروني بما نَصُّه : «إن الكلام الفصيح لا مكان له في الكتب العلميّة». والذي يقصده أبو الريحان هنا بالطبع هو الفصاحةُ البلاغيَّة بمفهوم ابن الأثير وعبد القادر الجُرجاني وابن سِنان الخفاجي، وليس بمعنى الوضوح ودِقّة الدلالة الذي نقصده هنا.

لاقتْ تِلك المِنهجيَّةُ تأييداً عارِماً مُذْ أيَّدها ووسَّعها وقَعَّدها مجمعُ اللغة العربيَّة بالقاهرة الذي تأسسَ بعد رُبع قرنٍ من إلقاء ذلك البيان.

لكن فريقاً من الغيارَى على صفاءِ العربيَّة من المُعَرَّبات والعامِّيات، بِحافز القدَاسة التي نُسْبِغُها كُلُّنا علَيها دِينيًّا أو بالحماسة العاطفية التي لا نشاطرهم إياها دوما، راحوا ينادون لا برَفْض العامِّيِّ والمُعَرَّب فقط بل أيضاً برَفْض المُولَّدات. وهو أمرٌ تعُودُ جذُوره إلى إحجامِ مُدَوِّني المعاجم حتّى الضخمةِ منها، كلِسان العَرب والقاموس المُحيط، عن تدوين ما يتَلَفَّظُ به عامَّةُ القَوم ولا حتّى ما استَخْدَمه المُوَلَّدون الفُصحاءُ مِنهم.

لقد أصرّ الصّفاوِيُّون على التقيُّد بتَرْجمة المُسَمَّيات ووضْع المُصطلحات بألفاظٍ عربيةِ النِّجار بدعوى أنّ في لُغَتنا لِكُلِّ شيءٍ مُقابلاً — فهي بكلمات محمّد عِزّة دَروزة وكأنه يَنْثُرُ أبيات[4] شاعرنا الكبير حافِظ إبراهيم، «المحيطُ الشامِلُ كُلَّ مُنتجات الحضارة — ما ظَهَر منها وما سيَظْهَر. فما على الباحثين إلاّ الغوصُ في هذا المحيط لاستِخراج دُرَره»[5]. حتّى إنّ أحدَ حاملي لِواء هذه الحركة تحدّى المُعَرِّبينَ أسماءَ الكيماويات مُستبْدِلاً بأسماء المُعَرَّبات منها أسماءً عربيَّة الحَسَب والنَّسَب —

فاستَبْدل	بالأكسجين	لَفْظَ المُصدىء
	وبالنِّتروجين	المُخصِب
	وبالهِدروجين	المُمِيه
وقال في	الصوديوم	الشذّام
وفي	المَغْنِسيوم	الضوّاء
وفي	الغرافيت	الخَطوط
وسَمّى	الكلور	المُحوِّر
	واليود	المُقرِم
	والبروم	المُؤسِن
واقترح لَفْظ	الآجِل	لِلْميثان
	والطاسِل	للإيثان
	والشاعِل	لِلْبروپان
واستعاض عن	الغليسرين	بالجَلِسيّة
	والغلوكوز	بالرُّبّ
	والطِّرطير	بالصاقور

وفي خُطى أُستاذِنا الكبير، الذي درسْنا البلاغة وأدبَ العربيَّة في بَعْض مُؤَلَّفاته، سارَ زميلٌ كبيرٌ لنا أطالَ الله بَقاءه — وهُو من فطاحِل العربيَّة دونَ مُنازع — فقال في

اللّثانوم	الخَبيء
وفي اللوتِشيُوم	الباريسي

وفي عصر المَيُوسين (الجُيولوجي) حقبةُ الرَّاعية «العصر الحديث الوسيط».

وليس بعيداً عن هذه الحركة اليومَ القائلون في التلفزيون : المِشوافَ أو المرناة

وفي الرادار : الكاشوفَ

وفي الجيولوجية : عِلْمَ الهلك.

كما قيل في الأمس القريب

الجُماز	في	التّرام
والمِرواز	في	البارومِتْر
والرَّقين	في	الرِّيال

وبالطبْع، لم تكُنْ العامِّياتُ، حتّى مُصْطلحاتُ أهْلِ الصَّنْعَة مِنها، أمثال :

بُرغي	وجَملون	وخُرْدة
ودَبْش	ودَرْفَة	وشَتْلة
وصاج	وصُوبة	ووَرْشَة.

---

(4) هي الأبيات المشهورة :

وسِعتُ كتابَ الله لَفْظاً وغايةً ... وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصف آلةٍ ... وتنسيـــق أسماءٍ لِمُخْتَرَعـــاتِ
أنا البحر في أعماقه الدُّرُّ كامن ... فهَلْ ساءَلوا الغوّاصَ عن صَدفاتي ؟

(5) يُعْزَى مِثْلُ هذا القول أيضاً إلى الشيخ حمزة فتح الله.

لم تكُنْ هذه أوفرَ حظًّا من المُعَرَّبات، ولَنا إلى هذا عَودة.

ثالثاً : أثناءَ التجربةِ الأولى لم يَقْتَصرْ دَورُنا على التلقّي السّلبي الاستِسلامي لأسبابِ الحضارة، بلْ كُنّا مُشاركين فاعِلين فيها ومُتَفاعلين إيجابيِّين معَها. فلقدْ كان لنا في كُلِّ مَجالٍ من مَجالات الحضارة عُلماءُ وباحثون ــ بل إنّ ناقلي التُّراثِ المُجابَه في بدءِ التَّجربة وخِلالَها كانوا في كثيرٍ من المَجالات هُمُ العلماءُ أنفسُهم.

ثُمَّ، ولَعلَّه الأهَمُّ ــ على مدى التّجربة الأولى لم نكُنْ نُعاني تسلُّطَ انتِدابٍ أو كَيْدَ مُستَعْمِر. كُنّا نحنُ السادةَ ــ سادةَ أنفُسِنا وسادةَ الإمبراطوريَّة وسادة الحضارة العالميَّة. وما كُنّا نَضعُه لِمُكتشَفاتنا من أسماءٍ عربيَّةٍ أو ما اقتَبسناه من مُعَرَّبات، فَرضناهُ حَتّى على اللغاتِ العالميَّة ــ تَشْهَدُ بذلك أسماءُ البُروج والكثيرُ من ألفاظ الفلك والكيمياءِ والجغرافيا والرِّياضيات في تلك اللُّغات.

لكنّا جابَهْنا التجربةَ الثانيةَ عَبيداً مغلوبينَ على أمرِنا، رعايا المُحتَلِّين أو المُنْتَدَبين أو المُستَعْمِرين، تتحكّمُ فينا مَشيئةُ المُحتَلِّ وسياسةُ المُنتدَب ومَصلحةُ المُستعمِر.

وكَيلا يكونَ الاحتلالُ والانتدابُ والاستعمارُ عَسكريًّا واقتصاديًّا فحسبُ بَلْ ثقافيًّا ولُغويًّا أيضاً، حرِصَ الأسيادُ على زَرْعِ الشَّك والرِّيبةِ في نُفوسِ أبناء الوطن العربيِّ بأهم مُقَوِّمات أصالتهم وحَضارتِهم ــ بلُغَتِهم.

فمُنْذ انطِلاقةِ عَصر النهضة وقَبْلَهُ جابَهَنا في معظم أرجاءِ الوطن العربيِّ عِداءُ العُثمانيِّين السافِرُ لِلُّغة العربيَّة وإهمالُ تَدريسِها والتركيزُ على اللغة التركيَّةِ. ولم تتخلّص العربيةُ من كابوس التّتريك إلاّ في أواخِر الرُّبعِ الأوّل من القرن العِشرين.

ولم يكُن المُحتلُّون والمُستعمرون التّوالي أرحمَ من سابِقيهم في هذا المجال منذ بدأت حركةُ النهضة تَحْبو وتَنْشَط. فقد تدَخّلوا في مَسيرة نَهْضةِ اللغة العربيَّة التي كانت قد أخذت تستوعبُ أسباب الحضارة الحديثة ومُتَطلَّباتها بنَجاحٍ في القاهرة وبيروت، فعطَّلوا المَسيرَة بفَرْضِ اللُّغة الأجنبيَّة كَلُغةِ تدريس.

وكانتْ جُهودُ مَدرسة الطِّب في القاهرة قد أخذتْ تُثْمِرُ غِنىً للعربيَّة بآلاف المُصطلحات على مدَى سِتِّين عاماً[6]. ونجحَ مُدَرِّسوها بهِمّةِ ناظِر الكُلِّية الدكتور بيرون منذ تأسيسها في تَرجمة قاموس القواميس الطِّبيّة لفابِر وهو أضخَمُ وأشمَلُ معجمٍ حضاريٍّ حينئذٍ، وتَحْوي مُجلَّداتُه الثمانيةُ جميعَ الاصطلاحات العِلمية والفنِّية في الطِّب والنبات والحَيوان والعُلوم الأخرى[7].

ولم تكُنْ جُهود الرُّوادِ في الكُلية السُّورية الانجيليَّة (التي أصبحتْ فيما بعد الجامعةَ الامريكية) أقَلَّ روعةً. فقد أسهمتْ إنجازاتُ فانْ دايْك وبُوسْت وورتَبات وبُطرس البُستاني والشِّدياق واليازجيين في إنجاح تدريس العلوم الطبيَّة فيها باللغة العربيَّة بمِنْهَجٍ عَصريٍّ ومُستوى راقٍ قُرابةَ رُبْع قَرن[8].

لكن الحركة أُفشِلت في مَهدها في كلا مركزَي النّهضة وتحوَّل التعليمُ إلى اللغةِ الانكليزية. وكان في ذلك التحوُّل بدءُ الدُّوّامة التي مازِلْنا ندورُ في حَلَقتها المُفْرَغة دون أن نتمكّن من تجاوُزها. فما

---

(6) 1827 ــ 1887.

(7) حمل هذا القاموس اسم «قاموس الشذور الذهبيَّة في المصطلحات الطبية» ولم يُنشر منه للعُموم إلا حوالي مئة صفحة بإشراف الدكتور أحمد عيسى عام 1910.

(8) من 1867 إلى 1890.

فتئت معظمُ جامعاتنا السَّبعين في الوطن العربي تُدَرِّسُ موادَّ العلوم بِغَيْر العربيَّة.

ولعلَّه مِمَّا يلْفِتُ أنّ تنفيذَ المؤامرة على العربيَّة في الفترة نَفْسِها في كِلا المركزَيْن. ويَقيني أنّه لو استمرَّت جُهودُهما لِتتضافَر مع جُهود رِجال المَعهد الطِّبي في دمَشْقَ منذ 1919 لكانت تجربةُ العربيةِ الثانيةُ في مُجابهة ألفاظِ الحضارةِ أنْجحَ ممَّا هي عليه اليومَ بكثير.

بين الفصيح والعامِّي

في سياق «ألفاظ الحضارة بين الفصيح والعامي» تَخْطِرُ لي تساؤلاتٌ مُتَعَدِّدة منها :

أ : هل يوجدُ مِعيار ثابت يُقاسُ به مستوى الكلمة ومَرتبتُها من حيثُ الفصاحةُ والعاميّة ؟

ب : هل اللفظُ الفصيحُ لُغويًّا فصيحٌ بالضرورةِ حضارياً ؟ وبالتالي هل يُمكنُ للّفظ الفصيح لُغويًّا أن يكونَ عامِّيًّا حَضاريًّا ؟

ج : هل اللفظُ العامِّي لُغَويًّا قاصرٌ حضاريًّا ؟ وهل ما يمنَعُ ترقيةَ اللّفظ العامِّيِّ لُغوياً ليُصبحَ فصيحاً لُغوياً أيضاً ؟ ثُمَّ

د : أين هو موقعُ الألفاظ الحضارية الدخيلة (أو المُعَرَّبة بنُطقها الأعجمي) في هذا التراتُب ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات أو بعضِها لا بُدّ لنا من تعريفٍ عَمَلانيٍّ لما نَعْنيه بلَفْظَتي «عامِّي» و «فَصيح».

الفيروزأبادي في مادة «فصُح» يقول :

الفَصْح والفَصاحة : البَيان

وفَصُحَ الأعجميُّ (ككَرُمَ) : تكلَّم العربيَّةَ وفُهِم عَنه.

والمُعجم الوسيط يُضيف :

رجلٌ فصيح : يُحسِنُ البيان ويُمَيِّز جيِّدَ الكلامِ من رديئه. وكلامٌ فصيحٌ : سليمٌ واضحٌ يُدرِكُ السَّمْعُ حُسْنَهُ والعَقْلُ دِقَّته، وفي تعريف «البَيان» يقول ابنُ مَنْظور :

بانَ الشيءُ : اِتَّضَح، وأَبَنْتُه أنا : أي أوضَحتُه، والبيان : ما بُيِّنَ به الشيءُ من الدَّلالة وغيرِها.

نستَخْلص من هذا أنَّ الفصيحَ من الكلام هو السَّليمُ الواضح الذي يُدركُ السَّمعُ حُسْنَهُ والعَقْلُ دِقَّتَه، والذي تُبَيِّنُ بِدَلالته الأشياء.

وفي تَعريف «العامِّي»، لا زيادةَ في المعاجم العربية على ما يرِدُ في المعجم الوسيط الذي يقول : العامِّي : المَنسوب إلى العامّة ــ والعامَّةُ من الناس خِلافُ الخاصَّة. والعاميُّ من الكلام : ما نَطَقَ به العامةُ على غير سُنَن الكلامِ العربيّ.

بِهَذه المعايير تعالَوا نتساءَل : هل اللفظُ الفصيحُ لُغويًّا فصيحٌ بالضرورة حضاريًّا ؟

ولْنَستعرِضْ بعضَ الألفاظ في هذا السياق :

الألفاظ		تأمورة
و		سَمْسَق
و		حَيْصَل
و		جأب
و		ظَأب

كلمات عربية أصيلةٌ وفصيحةٌ لُغويًّا.

فهل هي فصيحةٌ بمعنى أنّها كلامٌ يُدرِكُ السَّمعُ حُسْنَه والعقلُ دِقَّتَه وتُبَيِّن الأشياءُ بدلالته ؟

أليستْ لفظةُ الإبريق للتأمورة

والياسمين[9] للسّمسق

والباذنجان[9] للحَيْصل

والمُغْرَة لِلْجأب

والعَديل للظـــأب (زَوج أُخت الزوجة)

أوضَحَ وأبيَنَ أو على الأقل أكثَر تِبْياناً ؟

الألفاظ مُصدىء وكاشوف وعِلم الهلَك

ومَصْعَد ومَهْبط وكهَيْرب

هي كلماتٌ لا غُبارَ عليها، من حيثُ الفصاحةُ اللغويةُ والمَعنى المُعجميُّ أيضاً،لِلأكسجين

(9) «القاموس المحيط» يورد هاتين اللفظتين في شرح «سمسق» و «حيصل» لكنه يُهملُهما في موقعهما.

والرّادار والجُيُولوجية. والأنود والكاثُود والإلكترون لكنْ هل من وُضوحٍ في قَوْلِنا :

نُقِل المريضُ إلى غرفةِ المُصدىء أو إستخدم المُتسلِّقان قِنَاعَ المُصْدىءِ قبلَ الوُصول إلى قِمّة إفرسْت، أو إنّ الدمَ يُصدأُ في الرئتين ؟ وهو في الواقع يُؤكسَج ولا يؤكْسَد.

وإن قُلْنا المُصدىء في الأكسجين الثنائيِّ ذرةِ الجُزَيء، فماذا نقولُ في نظيره الثلاثي الذّرات الأكْثَرِ إصدائيَّةً ؟

«كاشوف»، وِزان فاعول، فصيحةٌ لُغويًّا ولكنها مُقابِل «رادار» قاصِرة، لأن الرادار هُو كاشوفٌ مُحَدِّدُ بُعدٍ راديوي. والكواشِيف اليومَ لا تقْتَصر على الرادار، فهناك :

اللِّيدار الكاشوف ومُحدِّد المدى الضوئي،
واللادار الكاشوف ومُحدِّد المدى الليزري،
واللوبْلار الكاشوف ومحدِّد المدى الدوبلري الليزري، والأوبْدار والسُّونار وغَيْرُها. وكلُّها «كاشوفاتٌ» لها ميزاتُها ووسائلُها ودلالاتُها المُختلفة.

ثُمّ إنَّ لفظة رادار وأخواتِها تتألّف كما هو مَعلوم من أوائليات أحرف الألفاظ التي عُرِّفَتْ بها تِلْك المُصطلحاتُ ــ وهي انتقلتْ إلى مُختلف لُغات العالَم دونَ النَّظر إلى الألفاظ التي اشتُقّت من أوائلياتها أصلاً.

لفظة «كاشوف» أرى أنها على فصاحتِها اللغوية قاصِرةٌ في الدلالةِ على مَدلُولها من حيث دِقّةُ التحديد والبيان. وليس عِلْم الهلك في هذا المجال بالمُصطلح الأفضل !

الفيروزأبادي يقول في «الهلَك» ما يلي :

الهلك (مُحَرَّكة) : السّنون الجَدْبَة، الواحدة بهاء، كهلكات، وما بَيْنَ كُل أرضٍ إلى التي تحتَها إلى الأرض السابعة، وجيفةُ الشيءِ الهالِك وما بين أعلى الجَبَل وأسفلِه وهواءُ ما بين كلِّ شيئين، والشيءُ الذي يَهوي ويسقُط.

أترانا نقُول إذاً :

عِلم الهلك المائي	في	جيولوجية الماء
وعلم الهلك الاقتصادي	في	الجيولوجية الاقتصادية
وعلم الهلك الهندسي	في	الجيولوجية الهندسية
وعلم الهلك البيئي	في	جيولوجية البيئة

ونقول التأريخ الهلكي
ومقياس الزمن الهلكي
وعلم المحيطات الهلكي...الخ

وعلى ما في كلِّ ذلك من شتاتٍ وبُعْدٍ عن الدّقة والوضوح ؟ أتركُ الجوابَ للجيُولوجيين !

«مَصْعَد» و «مَهْبِط» لفظتان فَصيحتان، وِزان مَفْعَل ومَفعِل، لمكانَي الصعود والهبوط. وقد كانتا فصيحتين حضاريًّا حين تبنّاهُما مجمع اللغة العربيَّة مُقابل «أنود» و «كاثود» أيّامَ كان مفهومُها مَقصوراً على التحليل الكهربائي.

لكنْ بظُهور الصِّمامات الإلكترونيَّة على أنواعها ــ حيثُ الكاثود هو مَبْعَثُ الإلكترونات ــ ما عادَ من الفصيح بيانيًّا ودَلاليًّا، وبالتالي حضاريًّا، أن يُسمَّى مَبْعَثُ الإلكترونات «مهبِطاً». وكان من الفصاحة الحضاريَّة أن عاد مجمعُ اللُّغة العربيَّة عن اللفظتين إلى المُعَرَّبتَيْن.

مُنْذ نِصْف قَرن تعلَّمنا أن الذرةَ تتألف من ثلاثة أنواعٍ من الجُسَيمات، سمِّيت
إبتدائية، أو أُوَيِّل كما فُصِّحتْ لاحقاً، مقابل «بروتون»
ومُتعادلة مقابل «نيُوترون»
وكُهَيْرب مُقابل «إلكترون»

فتحقَّق لنا فيها الفصاحةُ اللغوية والفصاحة الحضاريَّة. لكِنْ وأنا مُدَرِّسٌ منذُ حوالَي رُبع قَرن كُنَّا نُعَلِّمُ أن هَذه الجُسَيمات أكثرُ من سِتّة، وكُنْتُ أقرأ في المجلاّت العِلميَّة أنها سَبْعَةَ عشَر. اليومَ يَقولون إنّها أكثرُ من سَبْعةٍ وثلاثين مُوزَّعةٍ في أربعَ عَشْرَة فِئة ــ وهي إلى مَزيد.

وهكذا ما عادَ الأُويِّل أوَيِّلاً ولا ابتدائيَّة، ولا الكُهيربُ أدقَّ الجُسَيمات، ولا المتعادلةُ فِعلاً مُتعادلة، فضاعت الفصاحةُ الحضارية، فَصاحةُ الوضوحِ ودِقةِ

الدِّلالة، وعُدْنا نجدُ أنّ
بروتون وإلكترون ونيُوترون
أفْصَحُ في التعامُل مع أجزاء الذّرة الأخرى
كالمِيزون بأنواعه الخمسة
والپوزِترون والطاوون والمِيون والهاذْرون
والكاوون والنيوترونيو
والكُوارْكات بأنواعها الستة
والبُوزون والهايپرون... الخ.

العربُ بفَصاحتهم الفِطريَّة وسليقتِهم تعوَّدوا أن يَنْحتوا لَفْظةً من لفظتَين أو أكثر — فنحتوا
بَسْمَل بمعنى : قال بسم الله الرحمن الرحيم أو كتبها
وحَوْقل بمعنى : قال لاحول ولا قوة إلا بالله
وسبّح بمعنى : قال سبحان الله

ونحتَ المُعاصرون أو ركبوا مَزْجيًّا
بَرمائي من برّي ومائي
وكهرضوئي من كهربائي وضوئي
وحَلمهة من الحل أو التحليل بالماء

واجتمعت لمِثل هذه الألفاظ الفصاحتان : لكنّك في مَقيساتٍ علي سَنَنِها تَفْتقِدُ فصاحةَ البيان والدلالةِ أحياناً. فهل أفصَحَ الذين قالوا سابقاً
دمْعَز بمعنى : أدام الله عِزَّك
أو مَشْكَن بمعنى : ما شاء الله كان
أو طَلْبَق بمعنى : أطال الله بقاءك...؟

أو الذين قالوا لاحقاً
نَزْور بمعنى : نزع الورق
أو حَرْصم بمعنى : حرّر من الصَّمغ
أو زَهْرَجَ بمعنى : أزال الهدروجين
أو حَلْكحة بمعنى : الحَلّ أو التحليل بالكحول
أو صَلكلة بمعنى : استئصال الكُلوة ؟

أنا مَيّالٌ إلى الإجابةِ بالنّفي.

اللفظُ الفَصيح لُغويًّا ليسَ فصيحاً بالضرورة حضاريًّا، بل إنّه قد يكونُ حتّى عامِّيًّا — وفي هذا السِّياق أعْرِضُ بعضَ الأمثلة :

الألفاظ «طاقة» و «قُدرة» و«وُسْع» و «عَزْم» ألفاظٌ فصيحة. ويُمكِن لِلكاتب في موضوعٍ أدبيّ أن يُبادِل فيما بينها تلافِياً للتكرار أو عملاً بسُنَّةِ التنويع التّرادُفي في الأساليب البلاغيَّة.

لكنّ هذه الألفاظَ اتَّخذت في مَجالات العِلْم وبين أهلِه مفاهيمَ مُتَميزةً —
فلفظةُ قُوَّة في غير مقابل force
(ما يؤثر في جسم فيُغَيِّر حالة سكُونه أو حركته) : عامّيَّة
ولفظة طاقة في غير مقابل energy
(القدرة على القيام بشغل مّا) : عامية
ولفظة وُسْع في غير مقابل capacity
(سعة تخزين) : عامية
ولفظة عَزم في غير مقابل moment
(المقدرة على إحداث دوران حول محور...) : عامية

كذلك فإنّ لفظةَ «حشَرة» في تعريف حيوان لَبُون — كما تردُ في مُعجم نُجلَّهُ — عاميّة.

ولفظة «انصهار» مُقابِل fusion في مجال التفاعلات النوويّة، كما رأيتها مُستخدمةً في مُؤَلَّفٍ فيزيائيّ يدَرَّس في ثانويّات بلَد عربي، وكما رأيتها مُستخدمةً في مُعجم تِقاني جليل حديث، هي أيضاً لفظة عاميّة حضاريًّا، وإن كانت فصيحةً لغويًّا.

وأنتقل دون الإفاضة في موضوع العاميات الحضارية إلى تساؤلي الثاني :

هل اللفظ العاميُّ لُغويًّا قاصرٌ حضاريًّا ؟

مَنْطِقُ علماء التطوُّر اللغوي يُجيبُ بالنفي. فلَولا أنّ هذه الألفاظَ نجحت في تأدِيةِ مفاهيمَ حضاريَّةٍ مُحَدَّدةٍ تتّصلُ بشؤون الناس اليوميةِ لكانتْ ماتتْ واندَثَرت — إذ لا تُراثَ مَكتوباً يحفَظُها.

صاحِبُ «محيط المحيط» له فَضْلٌ كبير، إضافةً إلى مآثره المتعدّدة، في أنّه أدْرَجَ في «محيطه»[10] الكثيرَ منَ الألفاظ العاميّة أو التي تُستَخْدَم عاميَّةً في معنًى مُعَيَّن، وقد قلَّبْتُ صَفحاتِ هذا المعجم على عَجلٍ لأختارَ بعضاً من عاميّاته، وها هي ذي :

(10) «محيط المحيط» للمعلم بطرس البستاني.

بائكة بمعنى مخزن واسع
بَريمة بمعنى آلةٍ يُثقب بها
جَملون بمعنى سَقف مُحدَّب
حَوش بمعنى فناءِ الدار
خابور بمعنى مِسمار الخشب
خوّش بمعنى عمّق الثقبَ لِيَتَساطحَ رأسُ المسمار مع السطح
دَبْش بمعنى صغارِ الحجارة وسقطِها
دَلَف بمعنى قَطَر السقفُ أو وَكف
رصيد بمعنى المُتبقي من حساب مالي
زردية بمعنى آلةِ شدٍّ وزَرْد (زرَد أيضاً عامية بهذا المعنى)
سُنْبك بمعنى ما تُخْرز به الصفائح
شتلة بمعنى ما قُلع من النبات لِيُغْرَس في مكان آخرَ
صاج بمعنى صفائحِ الحديد وطبقِ الخَبز المحدَّب
صُوبة بمعنى مِدفأةٍ أو دفيئة زجاجيَّة
قِرِف بمعنى اشمأزّ
كِسْم بمعنى الهيئةِ للزِّي
مَحْصَلة بمعنى ناتج
مكُّوك بمعنى وَشيعة آلة الخياطة
ورشة بمعنى جماعةِ الفعَلة يَشتغلون

وكُلُّها مِمّا لا يُعْوِزُه البَيانُ ولا المفهوميَّةُ ولا دقةُ الدّلالة. فهل ما يمنعُ ترقيةَ هذه الألفاظ لُغَويًّا لتُصْبح فصيحةً لُغَويًّا أيضاً ؟

المعجمُ الوسيطُ كان صَريحاً في إجابَته حينَ أوْرَدَ غالبيَّةَ هذه الألفاظ دُون أن يُصَنِّفَها عاميَّة.

ولا غرابةَ في هذه التَّرقية، فهي مُتعارَفةٌ مُعجميًّا في كُلِّ اللغات. فمئاتُ الألفاظ التي ظهرت في أولى طبعات مُعجَمي أكسفورد الكبير البريطاني ووِبْستر الدَّولي الأمريكي[11]، وصُنِّفت عاميَّات، ارتقتْ إلى رُتْبة الفِصاح في طبعاتٍ تالية.

ولعلَّ من المُناسب في هذا السِّياق، سياق العامّي الفَصيح، إيرادُ نَصّ وَرَدَ في كتاب «مُشكِلات اللغة العربيَّة» للأستاذ محمود تيمور. يقول الأستاذ تيمور ما فَحواه :

الشعبُ يقول : عوّامة في عائمة
وسوّاق في سائق
ومِرسال في رسول

ويقولون : حَوّش المال
ومَلَخ ذِراعَه
وسيَّب الدوابّ
وبَرطل المُرتشي
وشوّر لِزميله

ويقولون : خِلْقَة الشخص بمعنى طَبْعِه
صيغة المرأة بمعنى حُلِيِّها
وقَبصة مِلح بمعنى نُتْفة منه بين إصبَعين
وفُم الغسيل بمعنى إحدى مَرّاته

فيأتي الكَثْرةُ من حَمَلة الأقلام يُفَصِّحونها بما لا يَمتاز عنها فَصاحةً ــ فما أحرانا أن نَفتح البابَ على مِصراعيه لمثل هذه التعابير تُثْري الفُصحى وتُكسِبُها مَزيداً من الدِّقّة والتعبير. لقد جَنَتْ على مِثْل هذه الكلمات تسميتُها بالألفاظ العامية لاقتصار استعمالها على ألْسنة العَوامّ، واختصاصِها بلُغة التخاطُب والحديث. فلْنَعرِفْ لِهذه الألفاظ حَقَّها في

(11) من الألفاظ التي كانت عاميّة وارتقت إلى الفصاح في هذا المعجم :
banter بمعنى يمزح و sham بمعنى صُوري و mob بمعنى غوغاء و finalize أنهى
بينما ظلت في رتبة العاميات ألفاظ مثل
duds بمعنى ملابس و dubes بمعنى قبضة اليد.

العربيَّة ولْتَجْرِ بها أقلامُ الكِرام الكاتبين دُونَ تَحرُّزٍ ولْنُسَمِّها العاميةَ الفُصحى[12] !

وأخيراً آتي إلى تساؤلي الثالث حول مَوْقع الألفاظ الحضارية الدَّخيلة بين الفُصحى والعاميَّة. وهي احتلَّتْ سابقاً وتحتَلُّ حاليًّا وستَحْتَلُّ مُستقبلاً حَيِّزاً مَرموقاً في دُنيا ألفاظِ الحضارة في اللغة العربيَّة.

هذا الواقعُ لا أراه مُخْتلِفاً نوعاً، وإن اختلَف كَمًّا، عن واقع الألفاظ الحضاريَّة في مُجابَهتِنا الحضاريَّةِ الأولى.

فالألفاظُ التي اهتضمتها العربيَّة قبل وبعد صَدْر الاسلام، حَتّى لكأنها غَيْرُ دَخيلة، مثل :

أستاذ وبَخور وبِلّور وتَخْت
ودَواة وسَدّ وسَيف وصَبا
وصِراط وفَتيلة وفُرن وقفَص
وكُرسي وكُوفية وناطور
وهاوَن ويَمّ

اِعتُبِرَتْ فَصيحةً حضاريًّا وفَصيحةً لُغَويًّا.

حتى تلك الدَّخيلات التي ظلَّت مَسْحَةُ العُجمة بيِّنةً فيها مثل :

إبريسم وإستبرق وإقليم
وديباج ودِرَفس وزَنْجَبيل
وفَنار ومُصْطكى وياسَمين

شفَع لَها حضورُها التُّراثي أو الأدبيُّ أو الحياتيُّ الحَضاري بين الناس، فلَم يعترضْ أحَدٌ على فصاحتها.

أمّا الدخيلاتُ الحضاريَّة التي استُخْدِمت في نُطُقٍ مَحدودة مثل :

اِسطَقْس وأنولُوطيقا
وغُنْطازيا وهَيُولى في الفلسفة.
أو أُشَّق وبَطرالْيون وبُوريطُس
وجَمشت وخَلْقيدون ودَهْنَج
ورَهَج وزَرْقون ومَرْقشيتا في الكيمياء.
أو أورطي وبَريطون وبَنْفراس
وقَرنِيَّة وقُولون ومَساريقى في الطب.
أو إطريفِل وبَرنُوف وبُوقيصا وجُنْجل
وشَقاقِل وطرخْشقون وفِربيون في النبات.
أو اِسقَنْقور وبَطْلينوس ودُلْفين وسُفْنج
وطرَسْتوج وقَبْيُون ووَشَق في الحيوان.

فقد ظَلَّت فوقَ التَّصنيف الفَصاحي، مَحصورةً في دفاتر الفلاسفة والكيماويين وعُلَماء النبات والحيوان وحَلَقاتِهم. وكَونُها خارِجَ صُلْب اللغة فإنّها لم تُضِرْها بَلْ أثْرَتْها وفتَحت مَجالاتِها واسِعةً أمامَ العِلْم وأهلِه من ذَوي الاختصاص.

ونحن اليومَ أمام مَوقفٍ مُماثِلٍ في مُجابهة الألفاظ الحضارية الدّخيلة.

فالتعريبُ أمرٌ واقِعٌ لا خَيارَ لنا فيه أمامَ أسماءِ المُرَكبات الكيماوية وأسماءِ العقاقير التي تتجاوز المِليون، وفي مجابَهة أسماءِ النباتات والحيوانات وفصائلها وطوائفها وأنواعها وأفرادها التي تتجاوزُ المليونين، وفي مُعالَجة المُسَمّيات الهَندسيـة والإلكترونيّة التي تُقاربُ هذا العددَ أيضاً، وكُلُّها مُستمِرَّةٌ في التدفّق على العالَم الحضاري، الذي نُريدُ مُواكبتَه، دُونَ انقِطاع.

إنّ الذين يَقفون في وَجه التعريب في نطاق هذه المُجابهة يُغالِطون أنفسَهم ويُغالطون الواقع.

---

(12) اكتشفتُ لاحقاً أن هذا الفصل من الكتاب واردٌ بعُنوان «العامية... الفصحى» في العدد الثالث عشر من مجلة المجمع.

كما إن الموقفَ المُتَشدِّد المُتحرِّص ضدّ التوسُّع في التعريب الذي فرضَتْهُ المجامعُ منذُ جيلٍ أو جيلين[13] نجده اليومَ يلينُ أمامَ حقائق الأمر الواقع. تَشْهَدُ بذلك تصريحاتُ سيادةِ شيخنا رئيس المجمع الدكتور إبراهيم مدكور[14] وسيادة رئيس مجمع اللغة العربية الأردني زميلنا الدكتور عبد الكريم خليفة[15] أطال الله بقاءَهما وحضرةِ المُناضل اللغوي الفَذّ المغفور له الأستاذ عبّاس حسن[16] وكُلُّها تقولُ بإفساح المجال للتعريب في هذه الحالات دون عائقٍ أو اشتِراط.

وفي تعامُلنا مع الألفاظ الدَّخيلة في عَصرنا الحاضِر أرى أن نَفيد من خِبْرة الأسلاف في هذا المجال.

فهناك ألفاظٌ دخيلةٌ استقرَّتْ في اللغة أو كادَتْ ولا مُبرِّرَ لأن تَتجاهلَها معاجمنا اللغوية اليوم ــ مثل :

بارود	بالة	بُرغي
بَلْطة	جُمْرك	سِقالة
غاز	طاولة	قَمْرة

وهُنالك ألفاظٌ فَرضَتْ نَفْسَها على شؤون حياتنا الحضاريَّة فلا يُمكننا تجاهُلها ــ وبالتالي فلا يجوزُ لِلُغتنا، مِرآةِ حياتنا، تجاهُلُها أيضاً. من هذه الدخيلات مثلاً :

أمبير	أوتوماتي	أوم
بارومِتر	باليه	بَسْتَرة
بطّارية	ترانْزِستور	تِرمُوستات
تِلْفِزيون	جيُولوجية	رادار
راديو	كَلْوَرة	كيلومتر
لِيْزَر	نِترات	هورمون الخ

وقد نَختَلِف في حَجْم هذا العدد من الدخيلات، ولكنه حتماً لا يتجاوزُ بضعةَ آلاف.

هذا العدد من الدخيلات الحضاريَّة إن نَحْن قَبِلْناه اليومَ، فإنّ باب استِبْداله يبقى مفتوحاً ــ تماماً كما استبدل الأقدمون:

---

(13) منذ حوالي نصف قرن أصدر مجمع اللغة العربيَّة قراراً في التعريب يقول : «يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجميَّة، عند الضرورة، على طريقة العرب في تعريبهم».
وقد شرح الشيخ أحمد الاسكندري هذا القرار المتحرّص باسم المجمع فقال «المراد بالعرب ــ في القرار ــ العرب الذين يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم، وهم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الهجري الثاني وأهل البدو إلى أواسط القرن الرابع».
مجلة مجمع اللغة العربية، ص 206، جزء 11.

(14) يقول سيادته ما فحواه : «وللعالم كامل الحرية في اختيار اللفظ الذي يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية فيستمده من الفصحى أو من العامية، ويستعين عليه باللغات الحية أو الميتة. وقد يشكو من قصور اللغة وعجزها عن أداء ما يريد فيلجأ إلى وسائل أخرى منها التعريب. وقد رسم المجمع للتعريب ضوابط تنظمه، فيعرب خاصةً ما يدلّ على أسماء الأعيان وأعلام الجنس (كالأكسجين والانزيم والايون والالكترون) وما يدل على تصنيف عام من أسماء الأجناس والأنواع في النبات والحيوان وسلسلة المواد المتشابهة كيماوياً وما ينسب إلى علم أو شخص أو اسم مكان».
مجلة مجمع اللغة العربية ص 7 و10، جزء 18. وفي مكان آخر يقول سيادته :
العلم هو تراث الانسانية جمعاء، يجب أن يُفسح مجال التبادُل فيه، وأن تُيَسَّر سبُلُه، ومن وسائل التيسير أن يُسْمَح بتبادل الألفاظ كما تُتبادَل الافكار والمعاني. «مجلة مجمع اللغة العربية، ص 148، جزء 11».

(15) يقول سيادته : «إن التحفظات والتحديدات والمناقشات المطولة حول التعريب اللفظي لا مُبرر لها ــ وأصحاب هذه الاعتراضات يسهمون من حيث لا يدرون في حملة المُعادين للغة العربية».
عبد الكريم خليفة، «اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث» عمان 1987.

(16) في تعليقه على موضوع التعريب يقول الأستاذ عباس حسن :
«إن التزام قد كاد عهدُه ينقضي قبل أن يضع المجمع لأجزائه أسماء، وقد تنقرض السيارة قبل أن تعرف أسماء أجزائها الرئيسية. وإني لأرى ألاّ نقف أمام المخترعات الحديثة ونكلّف المجمع وضع ألفاظ عربية لها ــ فإنّا حينئذٍ نكلّف أعضاءه عُسراً. فأنا لا أرى داعيا لهذا التزمُّت من ضرورة اختيار ألفاظ عربيَّة. إن بعض المصطلحات قد تتغير قبل أن نصطلح لها على أسماءٍ عربية.
مجلة مجمع اللغة العربية، ص 155 جزء 11.

الحساب بالأرثماطيقا
وعلم الفلك بالأسترونوميا
والهندسة بالجيومطرى
والبلاغة (أو الخطابة) بالريتوريقا

وكما وُفِّق الرُّواد في العصر الحاضِر باستبدال

بوسطة	ب	بريد
وتكسين[17]	ب	ذيفان
وسيّارة	ب	أوتوموبيل
وشاحِنة	ب	كميون
وشُرطة	ب	بوليس
وصِفاق	ب	بريتون
وفقر الدم	ب	أنيميا
وفندق	ب	أوتيل...وغيرها كثير،

حتّى وإن ظَلَّت الدَّخيلةُ تُنافِسُ ما يُتْحِفُنا به الغوَّاصون من الدُّرَرِ التي نَسْتَبْدلها بها، في مثل :

بنك	ومَصْرِف
تلفون	وهاتِف
توربين	وعَنَفة
زُنْبُرك	ونابض
كليشيه	وروسم
مِكروسكوب	ومِجهر
مِكروب	وجُرثومة

أما الدخيلاتُ البعيدة عن شؤون الحياة اليوميَّة والغريبة إلاّ عن استخدام ذوي الاختصاص العالي فإنّها ستبقى ألفاظاً حضاريةً ضِمن مَخابِر العلماء ومَساقات المتخَصصين ــ ولا خوفَ على اللغة منها لأنّها لن تَدْخُل صُلْبَ اللغة ولا مَعاجِمَها. والبُرهان أنّ ما تورِدُه أوْسَعُ المعاجم اللُّغوية العالميَّة من ملايين هذه الألفاظ لا يتجاوَزُ بِضْعَ عَشرات الآلاف كما في مُعْجم وِبْستر الدولي الثالث غير المختصر.

اللّفظ الحضاري من حيث إنّه واضحُ الدلالة ودقيقُ التعبير في مجال اختصاصه يُؤلِّف رُتْبَةً مُتَمَيِّزة تتجاوزُ الفصيح أو العامِّي بالمَفْهوم التقليدي.

وَالألفاظ الحضاريّة الدخيلة ــ السابِقُ منها الذي هضمَتْهُ العربيَّةُ، واللاحقُ، الذي تقبَّله اللغةُ بالاستخدام والشيوع والغَربلةِ السليقيَّة، هي جزءٌ مُهِمٌّ من اللغة يُنْعِشُها ويُثريها، كما إنَّ مُلْحقَها المُعَرَّب بِنُطَقه لاستخدام العلَماء يَجْعلُها قادِرةً على استيعاب العلوم المُتَطوِّرة الحديثة ويُقَرِّبُها إلى لغة العِلم العالميَّة، ويَسُدُّ الطريقَ على مُعرقلي مَسيرة تعريب التعليم في مختلف مَراحله.

لأنّا مهما أغنَيْنا لُغَتنا بالألفاظ الحضاريَّة كمًّا وكَيْفا، فإنّه لا يتجاوزُ كَوْنَه غِنًى في طول اللغة وعَرْضها ــ يَعني غنًى سَطحيًّا.

والغِنى الصحيح، الغِنى العُمْقِيُّ، لا يتأتّى إلا حين تُصبحُ العربيَّةُ لُغَةَ المتعلِّم والعالِم، وإلاّ باستِنْبات العلْم بيئيًّا عندنا ــ لِتُصبح اللغةُ العربيةُ لا لُغَةَ التعليم في كافة مَراحله فقط، بل أيضاً لُغَةَ البحث العلمي والتأليفِ العلمي والإبداع العلمي، وهذا بَحْث يطُول وأمَلٌ يُرتَجى، والله المُوَفّق.

(17) كان ابن سينا قد عرّبها «طُخشين».

المراجع

- أبو سعد، أحمد «قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية» مكتبة لبنان، بيروت 1987.
- البستاني، بطرس «محيط المحيط» مكتبة لبنان، 1977.
- بنعبد الله، عبد العزيز «نحو تفصيح العامية» الرباط، 1972.
- تيمور، محمود «مشكلات اللغة العربيَّة»، القاهرة.
- خليفة، عبد الكريم «اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث» عمان 1987.
- السيد، داود حلمي «المعجم الانكليزي بين الماضي والحاضر»، جامعة الكويت، 1978.
- شرف، محمد «معجم العلوم الطبية والطبيعية» القاهرة، 1928.
- الشيال، جمال الدين «تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية»، دار الفكر العربي، القاهرة 1950.
- عطيه، رشيد «الدليل إلى مرادف العامي والدخيل».
- غالب، إدوار «الموسوعة في علوم الطبيعة»، المكتبة الشرقية، بيروت 1988.
- مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الأجزاء 11، 12، 18.
- مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المُزدوج 23 ــ 24.
- مجمع اللغة العربية، «المعجم الوسيط»، الطبعة الثالثة، القاهرة.

- The Barnhart Dictionary of New English 1963 - 1972.
  C.L. Barnhart Inc. New York, 1973.
- The Second Barnhart Dictionary of New English,
  Barnhart Books New York, 1980.
- The Longman Register of New Words, Longman, London 1989.
- Webster's Third New International Dictionary - Unabridged G and C Merriam Co. Springfield 1976.